قرأتُ العددَ الماضي من «الآداب»

بقلم
الدكتور علي سعد

ما كان اكثر الاسباب التي تميل بي الى عدم اجابة طلب « الآداب » نقد عددها الماضي . ولولم يكن لي الا التعلل بكثرة اشغالي، وهي لا تمت بأية صلة الى العمل الادبي ، والا اعتقادي بأنني لست مؤهلا لهذه المهمة ، لكفاني عذراً .

ولكنني قبلت ، رغم كل ذلك ، الدعوة ، لما في تلبيتها من متعــة المخاطرة بمنازلة ادباء متمرسين بمختلف فنون الكلام ، ومن فائدة باتاحتها الفرصة لتعميق اتصالي بما تلقي به صفحاتها .

فان محاولة نقد العدد تحمل على الانتقال من الوضع السلبي ، والمريح الذي يقفه عادة القاريء من الآثار التي تعرضها عليه المجلة ، الى الوضع الايجابي ، وضع الانسان المدقق ، المسؤول عن احكامه عليها .

وتبعاً لهذه المسؤولية ، فهو سيضطر لاحكام بناء من المقاييس مــن المرونة بحيث يستطيع مواجهة جميع المجالات التي ينزل اليها المؤلفون ومن الثبات والتماسك بحيث يحافظ على نوع من الوحدة في الاتجاه وفي المصدر .

ولنبدأ الان ، طوافنا في العدد الماضي من « الآداب » . ولا بأس أن نبدأ بالشعر . ونحن نختار الشعر لسبب بسيط هو ان المجلة احبت ان تطالع القاريء بقصيدة الاستاذ خالد الشواف « المغرب العربي » في صفحتها الاولى التي كانت حتى اليوم ، منبراً تطل منه رئاسة التحرير او الاقلام الصديــقة بالكلمات التي تعبر عن وجهة نظر المجلة في مختلف القضـــايا الادبية والفكرية .

وان اعطاء الصدارة للقصيدة ، الموضوعة بمناسبة النضال البطولي الذي تضطلع به شعوب المغرب العربي يدل عــلى تعمد « الآداب » التأكيد بأهمية الشعر الوطني والشعر الذي يتناول مشاكل الشعوب العربية . وهذه البادرة محمــودة في ذاتها . وهي تتفق مع رسالة « الآداب » كأداة تعبير عــن الادب الملتزم وكصوت واع من اصوات الشعوب العربية .

ولكن النية شيء ، وصيغة الاختيار لتحقيقها شيء آخر . فان كنا نبارك محاوله « الآداب » لتشجيع الشعر النابع من وحي واقعنا الوطني، فاننا لا نشاركها محاولتها لتشجيع هذا الكلام المنظوم الذي تعطينا نموذجاً في مكان الصدارة من صفحاتها .

واننا نعتقد انه ليس من خطر على مذهب الالتزامية في الادب والدعوة الى الشعر الاجتماعي اكــبر من الخطر الكامن في مسايرة المحاولات التي لا يشفع بها الا انها تتحدث في موضوع متصل بهمومنا الوطنية . فان الشعر الاجتماعي لن يستطيع فرض نفسه الا اذا بدأ بان يكون شعراً اي الا اذا بدأ بالتفرد بطابع الجمال الفني . وليس هنا مجال تحديد الشعر او مقومات الجمال الفني .

ولكننا نكتفي ، للتدليل على ما قصدناه بالشعر ، بأن ندعو القاريء الى مقارنة قصيدة « المغرب العربي » الــتي تتناول اروع ملحمة في حياة الشعب العربي الحديث ، مع « اندلسيات » نزار قباني المنشورة في العددنفسه . فهو ان فعل سيجد الفارق الصارخ بين الكلام الذي أعدّ لان يكون شعراً فما افلح ، رغم تسلحه بالوزن والقافية والنــغم ، اي بكل التعاويذ السحرية التي ترافق القالب الشعري التقليدي، والكلام الذي ينبع الشعر من كل جوانبه رغم عدم تقيده بوزن وقافية ورغم تحرره من النغم الموضوعي .

هنا قالب شعري ولا شعر . وهناك مادة شعــرية ولا قالب . هنا كلام تستطيع ان تجد مثله في أية جريدة سيارة وفي منظومات الصفوف التي يدرس فيها علم العــروض ، فتخرج منه دون ان تمس باي انفعال ولا بأي غنى في احساسك وتجربتك ولا بأية رجة في كيانك ، على غنى الموضــوع بالامكانيات في احداث مثل هذه الاثارة والزلزلة . وهناك كلام لا يتركك ابداً في الحال التي كنت عليها قبل انزلاقك معه ، لانه يغني طاقة حواسك على الاحساس ،ولانه رغم تحدثه عن الاشياء او التفاصيل التي قد تبدو قليلة الاهمية ، الاجتماعية ، كالعيون والشعر والاصابع ورداء ملك عربي ، وقرط في اذن حسناء اشبيلية وشباك في شارع اندلســي ، يثير في نفسك الاستعداد البطولي نفسه الذي تبعثه فيــك قراءة شعر ملحمي .

فالكلمة الجميلة واللفتة الفنية الفذة والصورة الحية ، وسائل تفعل في نفس القاريء وتخلق فيها حالة التوتر التي لا يتم عمل نبيل او بطولي بدونها .

لا ، أنا لا اتخلى هنا عن بعض آرائي السابقة في حاجتنا الى ادب واقعي ؛ ولكنني احب لادبائنا الذين نريد منهم أن يعالجوا المواضيع التي يلح بها واقعنا الاجتماعي ان يتناولوها بالظرف والرشاقة وسعة الخيال وطرافة اللفتة (وكلها الوان مما يسميه الفرنجه Fantaisie) وبحلاوة اللفظة وكثافة دلالتها ودقتها في التعبير ، التي نلمح آثارها في « مذكرات اندلسية » لنزار قباني، وكما نلمحها في آثار شعراء لا تخجل المدرسة الواقعية من اتخاذهم نماذج لها كغوركي ومايا كوفسكي وناظم حكمت ولوركا ونيرودا .

ولا احب ان اترك نزار قباني قبل ان الاحظ انه رغم عودته في بعض مذكراته الاندلسية الى مصدر وحيه الاول: المرأة ، فانه في بعضها الآخر ، يبدو متابعاً سيره البطيء المتحرر من حالة الوتر الاحادي الذي كان عليه حتى وقت قريب . فهو في قرطبيتيه يؤكد من جديد تحوله عن التحويم الدائم حول عالم المرأة . وليته يذهب ابعد في هذا الالتفات للآفاق الشعرية الجديدة الذي بدأ بقصيدته « حبلى » وانتهى بقصيدته « خبز وحشيش وقمر » . فان نبرات صوته الجديد تضفي على غنائه غنى وتلاوين ورنة انسانية كانت تعوزه في دواوينه الاولى .

اما قصيدة « الشاعر والموت » فهي من الشعر العادي ، ولا اقول الباهت ويبدو ان صاحبها لم يتفلت بعد من النظرة الباكية الرومانسية للاشياء ، كما عرفناها في شعر شعرائنا اول اتصالهم بالادب العربي الحديث.

وتحاول قصيدة «فلسطين ابداً» ان تنقلنا الى جو سريالي .ولكن عبثاً. فان هذا الجو الذي جند له الشاعر كل ضروب التنافر في الانغام والصور والمفاهيم ، ظل محرماً علينا دخوله . ويا لضياع التعابير الغريبة والصور المبتورة والاستعارات والرموز البعيدة المرمى التي استخدمها الشاعر ليدهشنا . فقد يكون وفق الى بعث الدهشة فينا باكتشافه لاستعارات من امثال : « اذ تلمس الصدى يشع » و « ويسمعون البرق » و « فيسطع الظلام » وقد يكون نجح في تعجيز مدارکنا عن اللحاق به في نقله الدائم للخطاب من صيغة المتكلم الى صيغة المخاطب فالغائب دون ان ندري لمن يوجه الحديث ولا من يوجهه ، وقد يكون نجح في التهويل علينا ببعثرته الصور واللوحات والكلمات دون اي التفات لربطها بالوشائج التي تجعل من الكلام شيئاً معداً للافهام،ولكن اياً من هذه الوسائل المعقدة لم يستطع ان يجرنا الى الاندماج الشعوري مع القصيدة . وهي ، بعد ذلك ، لم تترك اثراً يفهم منه اننا بصدد الحديث عن فلسطين ، كما يستدل من عنوانها « فلسطين ابداً ».

وكم يحلو ان اتصور ان هذه القصيدة وزعت على اخواننا اللاجئين الفلسطينيين ، افتراهم يتعرفون فيها الى وجه وطنهم او الى حقيقة مأساتهم، وهل ترى المثقفين منهم يتلقون منها الانفعالات والاحاسيس التي تدفعهم الى حملها في دمهم وفي افئدتهم وتهيء اندفاعهم في معركة الثأر ؟ ام تراهم سيلقون بها بعيداً عنهم لشعورهم بأنها لا تتحدث عنهم ، بل ولا تتحدث عن شيء بلغتهم التي يفهمون ؟ وكيف يتعرفون فيها الى وجه فلسطين وقد ورد في احد مقاطعها :

« وتحت آلاف الجسور تحمل المياه
قلوب آلاف الرجال ..

فانهم عندما يسمعون هذه العبارة ، سيهزون رؤوسهم ويقولون : « أتراه يحسب بلادنا على ضفاف الفولغا او الرين » ؟

وعندما يقرأون في نهاية القصيدة :

... ما جدوى شذى الضياء
في عالم تباد فيه اجمل الورود ؟
فلنحترق ، ماذا وراء الحب والغناء ؟ »

سيقولون : « اني فلسفة العبث هذه يرى مثقفونا السبيل الى انقاذ ، وحتى انت ، يا من يتوج شعره بأقوال اراغون ؟ »

وبعد ، فانني انتهز هذه المناسبة لاصارح بعض شعرائنا الذين يحاولون زج شعرنا في الدروب الملتوية التي سلكها الشعر الغربي الحديث ، بما كنت دائماً اتوق الى اعلانه : ان كل محاولاتهم لادخال التعقيد والابهام الى ادبنا العربي لن يكتب لها النجاح، كما لم يكتب البقاء لمحاولات فورونوف بتلقيح غدة حيوان على حيوان من نوع آخر لتنافر طبيعة الانسجة في النوعين .

فقد يجوز لاليوت أو لكوكتو أن يخاطبا قومهما بلغة معقدة ، لولبية ، أو انبيقية (كما تقول الفرنسية) وأن يبعثا في شعرهما جواً متجهماً زاخراً بالضباب والاشباح . فان في جو بلدتهما وسمائهما شيئاً من هذه الملامح. وان امتيهما وصلتا الى نهاية حضارة استنفد فيها الانسان قدرته على استيعاب القول المفهوم فحق له أن يجرب ترف القول غير المفهوم .

ولكن ذلك لا يجوز في بلداننا المشرقية التي تنوء سماؤها بالضياء ، فأصبح لزاماً أن يعكس ادبها هذا الضياء وهذا الاشراق ، في هذه البلدان التي لا تزال شعوبها الناشئة الهرمة تنتظر من الكلمة ، الكلمة الواضحة والقول البين المشرق ، بعض حلول الخلاص لكثير من مشاكلها والطاقات المحركة في اتجاه تحررها .

ان باستطاعة الغرب أن يبدد قواه الفكرية والتلهي بكل لون من الوان البهلوانية الادبية أو الفنية. فان فيه من المؤسسات التي تثقف الفرد والمجموع التثقيف الفويم ما يكفيه لتحصين شعوبه ضد المحاولات لتعقيد الفكر والاحساس الفكري وتفتيت الكلام الى ايماءات ، والى وسائل تعبير غير مباشر .

أما نحن ، في شرقنا الذي لم يستكمل بعد الضروري من اعداده الثقافي ، فبحاجة الى آخر كلمة تولد من أقلام كتابنا والى آخر ومضة في ذهن مفكرينـــا . اننا بحاجة الى ان نزود كل ما يقال وما يكتب باقصى ما يمكن من طاقة على التعبير المباشر ، القادر على بلوغ أوسع ما يمكن من الفئات الانسانية . اننا ، اذن بحاجة الى ان نبسط ، وسعنا ، وسائل الاداء لنجعل أدبنا وشعرنا في متناول ابعد قارىء في مجتمعنا الذي لم يذهب بعد بعيداً عن طور العلم البدائي .

وانا أقول ذلك بمناسبة الحديث عن قصيدة الاستاذ كاظم جواد الذي رأيته يستشهد في كثير من مناقشاته السابقة بلوركا وناظم حكمت . افلم يجد في آثار هؤلاء ما يغريه بالبساطة في التعبير والوضوح في القول ، والشفافية في الجو الشعري ، دون التخلي عن كثافة المعاني والصور والانفعالات ؟

والحديث عن الشعر ، وعـــن لوركا وعن ناظم حكمت يجرنا ، بتسلل طبيعي غـــير مقصود ، الى قصيدة نجيب سرور « حفنتا دموع » وقد اعجبني فيها تواضع اللهجة وحلاوة النفس القصصي وبساطة الاداء، وجو من البراءة الطفلة يذكرنا بجو الحكايات العتيقة التي أحببناها في طفولتنا والتي لا تزال ذكراها تحبب الينا الطفولة ، هذا الى عمق في دلالة الايماء الرمزي وحب عميق للحياة ، وانفتاح على الرجاء . ولا يسعنا الا أن نهنىء هـــذا الشاعر الذي يظهر في هذه القصيدة كما في قصيدته السابقة ، السندباد البحري محاولة ناجحة لان يمد جذور شعره الى الينبوع السخي الذي خلقته حكاياتنا الشعبية القديمة والحديثة مع نية ظاهرة على تطوير معانيها ورموزها وفقاً لحاجتنا الحديثة .

ولكننا نحب له أن يستغني عن تعبير من نوع قوله :

« صديقي ، فلفني الشعور ...»

وقوله : «صديقي ، فجاءني الاصم ذو النيوب »

فان ايراد الفاء في أول سياق الجملة ، بعد النداء، غير مستحب .

وتطل قصيدة الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي «المدينة والفجر» بملامح شعرية أكيدة، وأظن انه ليس من امرىء عرف المدن الكبرى في ساعات فجرها حيث يلتقي وجهاً لوجه الساهرون المترفون العـــائدون من لهوهم والكادحون المقبلون على جهد العيش ، الا ويشعر بصدق الرؤيا الطريفة التي تدور حولها القصيدة :

«تحدى العامل البناء عيش المترف الغافي »
هنا في الدرب تلقـــاه
يبارك فجره الله
وتعطي الدهر يمناه
شذى البركات والخيرات من ينبوعه الصافي

ويؤسفنا ألا نستطيع تبين مثل هذا الوجه الشعري في قصيدة شاعرة أخرى : «انطلاق» . فان انطلاق الشاعرة وراء حدود الزمان والمكان لا يغري أحداً باتباعها ، في هذا العصر الجاحد الذي لم يعد له اجنحة تطير به الى الاجواء الصوفية .

ولنطو صفحة الشعر . فقد آن لنـــا ان نطرق الابواب الاخرى . ولنلتفت ، باديء ذي بدء ، الى الابحاث النقدية التي تحتل أوسع مكان من العدد .

وأبادر لاسجل هذه الصدفة التي جاورت في عدد «الآداب» بين اديبين لبنانيين تناولا بالبحث شاعرين لبنانيين عاشا خارج لبنان ، فجاء كل بحث مؤكداً للتيار الأدبي الذي ما انفك صاحبه يمثله ويبشر له في لبنان منذ اكثر من عشرين عاماً .

أما الناقدان فهما رئيف خوري الذي تناول نيرونية خليل مطران في مقاله : «الشعر والموضوع» ، وادوار حنين الذي قدم لنا «شفيق المعلوف والشعر المهموس »

وهذه الصدفة التي جمعت جنباً لجنب أديبين ظلا يلعبان الدور الذي اختاراه لنفسيهـــما ، تعطي صورة مصغرة عن الاتجاهين الذين يتجاذبان النقد الادبي والحياة الادبية في العشرين السنة الماضية ، في لبنان .

فرئيف خوري يمثل ، في مقاله ، الى ابعد حدود التمثيل ، المدرسة التي ترى في الموضوع أو «المحتـــوى أو المضمون ، العنصر الاساسي في الشعر ، وتبعد الى المقام الثاني العنصر الشكلي ؛ وهو في هذا المقال لا يكتفي بقصر حديثه على ابراز المضمون في القصيدة التي يحللها ولكنه يذهب أبعـد فيلح على ضرورة « تركز القصيدة العربية على الموضوع الواحد » ويقيس نجاح قصيدة «نيرون» بمدى تمكن صاحبها من المحافظة على هـــذا الموضوع الواحد طوال مئات الابيات المنظومة على الروي الواحد والوزن الواحد .

ولكن هذه الدعوة الى العنـــاية بالموضوع ليست في نظر رئيف خوري ، والمدرسة التي يمثلها ، الا سبيلا للدعوة الى العناية بالمواضيع التي تتصل بالواقع الاجتماعي ، وتبعـــاً لهذه المقاييس ، فهو يحـــاول ، بلغة واضحة ، مباشرة ، واسلوب يدخل بيسر الى افهام كل القراء ، يواجه القضـــايا مواجهة مباشرة دون لف ولا التواء ، أن يربط بين موضوع القصيدة : وصف طغيان نيرون ، ونزعة مطران الثائر الى محاربة الطغيـــان التركي السائد في ايامه وتحريض الشعوب العربية عليه .

ونحن ، وان كنـــا نوافق الاستاذ خوري على نظرته الاجتماعية هذه الى الموضوع ، فاننا نعتب عليه لانـه اكتفى بالاشارة الى ما سماه « جوراً محتملاً » من قبل خليل مطران حين يحاول القاء المسؤولية في قيـــام الطغاة على الشعوب وحدها .

فنحن لا نقنع من رئيف خوري ، وهو الاديب الذي عهدناه دائما نصير الشعب ، بأن يعمد الى تركيز كل اهتمامنا على موضوع قصيدة مطران : وهو وصف الطغيان ومظاهره ، ثم أن يتنكب عن الخوض في النقطة الاساسية التى يثيرها هذا الموضوع : علاقة الطغاة بالشعوب وتحديد التبعة في مولد الطغيان بحجة « ان هذه حكاية اخرى »

فاذا كان جلاء «هذه الحكاية» لا يدخل في صميم عمل الناقد ذي الاتجاه الاجتماعي ، فاية حكاية اجدر بعنايته في قصيدة يحاول ، بتحليله أن يصل بين اثارة موضوع الطغيان فيها ، ومساعي الشاعر لنسف اسس الطغيان والاستعمار المسيطرين على مجتمعه ؟

أما ادوار حنين فيعطي بعض لمحات على شفيق معلوف كما يبدو في مجمل شعره . وقد توسل الى تحديد شاعرنا المهجري بتسليط اضواء خاطفة ، حيية مقنعة ، اضواء تنصب بصورة جانبية ، على اجزاء وزوايا مختلفة من البناء الشعري عند صاحبه ، معطياً الاهمية نفسها للروح والهيكل ، للمعاني ولصياغة المعاني . وهو يحاول ان يفكك العالم الشعري عند صاحبه وان يحيله الى عناصره واجزائه الدقيقة التي لا تحددها كلماته الا من باب التقريب . لذلك ، فهو لا يقف طويلاً عند الملامح الهاربة التي يكتشفها عند شفيق المعلوف بل يحوم بكلماته المنمنمة « المهموسة » تحوياً حولها لانه لا يقصد التحديد بقدر ما يقصد الايحاء . وهو ، في نقده ، يظل شاعراً ، لا يأنف من الاستمتاع بالالف مع المنعطفات التي تؤدي به الى العثور على الخاطرة الحلوة ، فيجلوها برشاقة كالزهرة النادرة .

ولكننا كنا نود منه الا يكتفي بهذا الانحناء الرقيق على شعر المعلوف وكأنه عالم بذاته ، بل ان يذهب ابعد فيبين لنا الخيوط التي تشده الى العالم الفسيح الواقعي الذي تكون فيه ومدى انعكاس هذا العالم في تضاعيفه . وقد كنا نتمنى ايضاً ان يوضح لنا الاستاذ حنين كلمته :

« ان شفيق معلوف من ابرع من غرف من الغرب واصدق من صب في الشرق مغترفه » فيظهر لنا اين يبدأ اثر الغرب في فن شاعرنا المهجري واين ينتهي اثر الشرق . فنحن في هذا الشرق لا نزال بحاجة الى دراسة وجوه التفاعل بين الثقافة العربية عند شعرائنا المغتربين وظروف عيشهم وعوامل الحضارة الغربية في الارض الجديدة التي دفعتم اليها الاقدار .

ولولا خوفي من ان اتهم باستباق نتائج هذه الدراسة ، لهمست في اذن الاستاذ حنين : انني لا اعتقد ان شفيق المعلوف قد غرف من الغرب اكثر مما غرفه اي مثقف ظل قاعداً في الشرق ، لا يتصل بالعالم الغربي الا عن طريق قراءاته . فاننا لا نرى على آثار المعلوف ولا على آثار اي من شعرائنا المهجريين اي ظل وصدى حقيقي للأرض والشعوب والحضارات الغربية التي عاشوا في احداثها ومصائرها ما يقارب عمراً بكامله .

ونحب أن ندرج كلمة انور المعداوي « زوايا ... ولقطات » في عداد الابحاث النقدية ، لأن شقها الثاني يتناول تحليل قصة «الآخرون» المنشورة في عدد سابق من «الآداب».

ولا جدال في أن براعة الاستاذ المعداوي في ابراز العناصر الفنية التي تكون القصة ، وكل قصة ، وايضاح المقاييس النقدية الموضوعية التي أحب اعتمادها في تناولها ، توجب له علينا التهنئة الحارة . ولا يسعنا إلا أن نقر بصحة نظرته في ضرورة قيام القصصي بعملية اختيار « الموقف المضيء واللحظة المشعة من الواقع الذي يزخر بتجاربنا الانسانية » ، وبسلامة التمييز الذي أجراه بين سلبية الصورة الناتجة عن « تصوير حدث او تحليل شخصية بلا مشكلات وايجابية القصة الناتجة عن تجسيم مشكلة » وأخيراً بحسن تحليله العناصر التي تشكل عملية وضع التصميم الفني حين قسمها الى تخطيط مادي يعبر عن الواقع الخارجي للنموذج البشري الرامز الى المشكلة و« تخطيط نفسي يصور انعكاس هذا الواقع على الوجود الداخلي للنموذج حين يتحول هذا الانعكاس الى نوع من السلوك الاتجاهي الذي يبرز عنصر الايجابية في المضمون القصصي . »

وكل ما يمكن ان نضيف الى هذا التحليل العميق هو أن ايجابية القصة لا تقوم فقط على تجسيم المشكلة ، كما يقول الاستاذ المعداوي ؛ فأن « تحول انعكاس الواقع الخارجي على الوجود الداخلي للبطل الى مجموعة من السلوك الاتجاهي لا يتميز بالايجابية الا اذا كان هذا السلوك يذهب في الاتجاه العام الذي تقضي به نواميسُ التطور الصاعد في المجتمع الذي يتحرك البطل في نطاقه ، ومنطقُ القوى النامية في « الحياة المتحركة المتجددة » كما يقول الاستاذ رئيف خوري في مناظرته حول قضية « لمن يكتب الاديب » .

فلو ان مؤلف قصة « الآخرون » انهاها بحيث جعل الأحداث الخارجية تدفع بطله الى الانهزام من المعركة التى زج فيها بدلاً من اتخاذ السلوك النضالي الذي اتخذه في القصة ، حين اندمج تحت ضغط الاحداث وواقع الحياة في التيار العام الذي كان يحمل ابطال معركة القنال المصرية على اعطاء حياتهم في سبيل حرية الآخرين ، لما كانت القصة تتميز بأية ايجابية . ان الايجابية لا تعني فقط الموضوعية . إنها شيء نسبي . وهي لا تنفصل ابداً عن المضمون الاجتماعي الذي يقوم في أساس كل أثر ادبي . هذه هي الحقيقة التي كان يسرنا أن تأتينا من قلم الاستاذ المعداوي لتكون تهنئتنا له خالية من كل تحفظ .

اما الشق الاول من « زوايا ... ولقطات » فيتناول بعض جوانب من الازمة الادبية القائمة في مصر اليوم . وهو يحاول تفسير هذه الازمة بتوزيع

الاتجاه بين عدد من المفاهيم المتناقضة عند عدد من الانماط ، ويعزو هذا التوزيع الذي سبب قيام حواجز بين نوعين من الكتـــاب والقراء وبالتالي عزل انتاج كل فئة في داخل حدودها ، الى اختلاف في مناهج التعليم في الكليات التي تدرس الادب في مصر . وهو قد أحسن التمييز بين خصومة اليوم حول الجديد والقديم والخصومة التي قامت حول الموضوع نفسه منذ ربع قرن ، حين أكد أن الخصومـــة القديمة كانت تدور حول الشكل والتعبير بينما خصومة اليوم تتناول طبيعة المضمون الفكري .

ولكننا نأخذ على الاستاذ المداوي انه لايرى من اسبـــاب تكوين المفاهيم الادبية المتضاربة الا عامل التثقيف الجامعي ، متناسياً العوامل الاخرى التي لا تقل عنه أهمية : كعنصر البيئة الطبيعية الحياتية وظروف العيش واحكام المهنة والطبقـــة التي ينتمي اليهـــا الادباء ومختلف التيـــارات العقائدية والاجتماعية التي تعصف بهم وتطبع أدبهم بطابع قد يغلب على طابع الكلية التي تخرجوا منها .

ان تجسيم الاستاذ المداوي لعامل التكوين الجامعي للادباء المصريين لا ينير الا جانبا جزئيا من اسباب أزمة المفاهيم والقيم في حياة القطر العربي الكبير . ولولا ما نعلمه من سعة علم الاستاذ المداوي ، لقلنا ان نظرته تجعل من أدباء مصر قوماً تصح عليهم الصورة التي خلفها عمر الفاخوري عن ادباء بلادنا حين تخيل «الانموذج الوسط » لهم في «صورة رجل من حبر وورق» ونحن على ثقة من انه لو امتد ببحثه عن اسباب المشكلة من نطاقها الذهني الى نطاقها الحقيقي الذي تلتقي حدوده مع حدود الحياة الفسيحة ، لكان بحثه أوفى .

أما عرض انيس صايغ لبعض الملامح في القصة المصرية القديمة «سنوحي» فمفيد وممتع . وحبذا لو انه أرفق بحثه ببعض فقرات من نصوص هذه القصة ، تمثل بصورة ملموسة الافكار التي أوحت اليه بهـا . فهو ، لابد ، يعرف أن الاكثرية الساحقة من القراء تجهل هذه القصة .

والان لو قمنا بالنقلة الى القصص الموضوعة التي يحتويهـــا العدد لوجدنا ثلاثاً متفاوتة في قوتها واتجاهها .

وأولاها قصة ذي النون ايوب «جديد تحت الشمس » . وهي تعبر بلغة سلسة عن لحظة هانئة في عمر شاب شرقي قدر له أن يقـــع على من يحب في مدينة اوروبية . الموضوع ليس بجديد . ولكن الجديد فيها أنها تمثل تحول مؤلف « صور شتى » عن الاتجاه العام لقصصه الاخيرة ذات الطابع النضالي ومساوقة اسلوبه في هذه القصة لحاجات جو الغبطة والفرح الذي يسودها .

والقصة الثانية ، «دموع للبيع» للانسة سميرة عزام يمكن اعتبارها قصة العدد . ففيها بناء محكم وفيها لفتات واعية على تفاصيل دقيقة منتزعة من وهج الواقع فتزيد البناء غنى وتماسكا والمأساة تكوناً وتكاملاً حيين. وفيها ايضاً ، مقدرة على اثارة الموقف المسرحي وبعث المـــأساة وعلى تصوير بطلة الرواية بقوة ووضوح بكلمات معبرة مركزة لايحسنها الا الذي استكمل عدته الفنية .

وهذه القصة تحمل طابعاً واقعياً اصيلا . فهي تصور بصدق وفهم لوحة من حيـاة القرية ومن عاداتها الشعبية عندنا ، هذه العادات التي كانت تعطي قرانا رونقها ونكهتها ، والتي أخذت بالتضاؤل أمام موجة المدنية الطاغية .

أما قصة «النهر الجديد» فتصدر أيضاً عن النية نفسهـــا لتسجل بعض الوجوه الهاربة من حياتنا القديمة . وتصرخ فيها غصة وحرقة للشعور بان ما ولى من معالم حياتنا الماضية قد ولى دونما رجعة ، ولعجزنـــا عن وقف التحول الذي اصاب طرق العيش عندنا بصورة لا تقهر . وهذه القصة التي اتخذت اطاراً لها مدينة القدس وجوارها ، لا تخلو من مغزى سياسي . وهي صورة جديدة عن حالة « الغضب الاقدس » التي لا تكف عن تملك نفس كل عربي منذ نكبة فلسطين .

والقصة المترجمة الوحيدة في العدد «توبياس» تعطينا نموذجـــاً عن ادب الـــكاتب الالماني توماس مان الذي نعته البرقيات في الشهر الماضي

وقد أحسنت الآنسة مطرجي باختيار هذه القصة ، على ما في ذلك مـن تجاوز على حقوق الترجمة التي يدعيها صديقنا الاستاذ عبد اللطيف شراره الذي سبق له أن نشر ترجمة قديمة لها في مجلة «الامالي» المحتجبة عام ١٩٣٩ . ولكننا نعتقد أن في اعادة ترجمة هذه القصة تأكيداً لحسن ذوقه القديم . وهذه القصة تمثل جانباً من حياة الطبقة البائسة التي تتألف من المشردين الضائعين في ليل المدن الكبرى حيث تسحق قلوبهم كل يوم قسوة مجتمع لا محل للرحمة فيه . فهي تصور مغامرة انسان من هذه الطبقة لم يعرف يوماً دفء قلب صديق. فاضطر لشراء كلب صغير حول اليه كل استعداده للعطف الانساني . ثم انتهى بقتله عندما آنس منه ميلا للتحرر من عنايته.

ولغة الآنسة مطرجي طلية وطيعة ، فاستطـــاعت أن تؤدي جو القصة الموحش على حقيقته . ولكنا نتمنى عليها ان تقلل من الجمل المعترضة عندما تكون مفرطة في الطول . بياننا العربي لا يقبل هـــذا التعقيد في تركيب الجملة الا بصعوبة . واننا نعتقد أن محاولة الحفـــاظ على كل تثنيات الجملة الفرنجية في اطار الجملة الواحدة بالعربية تشكل اكبر الاخطار التي تنتظر المترجم العربي الذي يتقيد بحرفية النص الاصلي .

وفي الابحاث العامة نري كلمتين ، احداهما للشيخ عبـــــد

دار بيروت - للطباعة والنشر
بناية نعازارية ، تلفون ٣٩٠٣ بيروت - لبنان

١ - التنويم المغناطيسي
كيف تصبح منوماً مغناطيسياً
تأليف — ترجمة
بول جاغو — بهيج شعبان

٢ - الادب الهندي
الكتاب الاول
من مجموعة الآداب العالمية
تأليف — ترجمة
لويس رينو — بهيج شعبان

الله القصيمي والاخرى مهداة اليه بقلم جورج جرداق .

أما كلمة الشيخ القصيمي « دفاعاً عن العرب والاسلام » فتتضمن استنكاراً صارخاً للمحاولات التي يقصد بهـــا خنق حرية الرأي والفكر خوفاً على التراث الديني والثقافي . وهو يحاول ان يطمئن المدافعين عن العروبة والاسلام الـــذين يتصدون لمهاجمة كل مفكر حر ، بالتـــأكيد ان الاسلام والتاريخ العربي من القوة والرسوخ بحيث لا يستطيع أن ينال منهما نقد الناقدين وان كل محاولة لاسكات الباحثـــين الاحرار تؤدي الى نتيجتها العكسية لانهـا تبعث الشك في منعتهما وحقيقة قيمهما وتنافي ما نباهي به دوماً من ارتكاز الحضارة العربية والاسلامية على حرية الجدل والبحث .

هذه الحقائق التي أعلنها الكاتب في مختلف الصور والصيغ ، ما أحسب ان احداً يجادله في صحتها . فهو باسهابه في تبيانهـا يبدو كمن يهاجم ابواباً مفتوحة ، كما يقول المثل الفرنسي .

وإن كنا نوافق الكاتب على مجمل هذه الآراء ، وعـــلى مناداته بحرية الفكر ، فاننا لا نقره ابداً على نظرته « النيتشية » للأمم التي يريد ان يبنيها على الشكل الهرمي ، حين يقول : « الشعوب العظيمة يوجد فوق قمتها امثال افلاطون واينشتاين بينما يوجد تحت قاعدتها جماهير المزارعين والعمال الطيبين الذين يبتسمون لكرم السماء ! اما الشعوب المتخلفة ، فهي ترفض ان تكون لها قمة ! لهذا فهي تدأب ابداً على تحطيم القمم . انها دائماً تفضل صفات القطيع . »

فنحن نرفض انغماشيه في اعتباره جماعات المزارعين والعمال قطيعاً . فاننا نعتبر ان سواعد هذا « القطيع » التي تبني كل ما هو نافع وجميل في هذا المجتمع الانساني ، جديرة بالاحترام على قدر « القمم » التي لا يرى الكاتب سواهـــا في حسابه لعظمة الامم .

اما كلمة جورج جرداق « شيطان بين عملاقـين » فهي تستحق التهنئة . ففيها تمرد وتعلق بمعـنى الحرية وايمان عميق بمصير الانسان . هذا الى طرافة في طريقة التعبير عن النزاع الفكري بصورة تجعله حكاية حية . وهذه الكلمة تعيـد الينا جورج جرداق من عالم الصحافة بوجهه الحقيقي كـأديب ومفكر موهوب .

وكل ما اخشاه هو ان تفزع بعض القراء لهجة الجبروت والسخرية التي قد يلمسونها فيها . فهذا الجبروت وهذه السخرية من الخصائص الملازمة لكل قلم متمرد وعقل متحرر. وكيف لا يعذر جورج جرداق عليهما ، وهو يستشفع بأحد جبابرة السخرية : فولتير ، الذي يقدمه الينا فيعيد كل زخمه الثوري وبنائه العقلي اللذين لم يفقدا نضرتهما حتى اليوم .

ويتناول بحث الشهر « الحرية » المنقول عن الانجليزية فصلاً من دراسة فلسفية لمفهوم الحرية بقلم الكاتب الوجودي جان فال . ورغم اقرارنا بأهمية هذا الموضوع ، الذي يقوم في قلب مشا كل العصر الحديث ، فاننا نعتقد ان القسم المترجم من هذا البحث الذي يفترض صاحبه ان القضايا الفلسفية الخاصة التي يثيرها معروفة من الجمهور الذي يتوجه اليه ، يشكو كثرة التركيز ولا يؤدي الفـــائدة المرجوة لجمهور واسع من القراء تتوجه اليهم مجلة ادبية عربية « كالآداب » لا تدعي التخصص بالشؤون الفلسفية.

ولكن يجب الاعتراف للمترجم بالبراعة في نقل هذا الأثر العميق ، الدقيق بحيث قربه كثيراً الى فهم القارىء العربي . فهو قد نجح في تقصي كل تثنيات فكر الكاتب الانكليزي دون ان يثقل البيان العربي واننا نعترف له بالجهد الذي بذله في العثور بالعربية ، على المفردات والتعابير

صدر حديثاً

الشعر وقضيته في الأدب العربي الحديث

كتاب جديد للاستاذ ابراهيم العريض وهو
الكتاب الثاني من منشورات

« صوت البحرين »

توزيع المكتب التجاري – بيروت

الثمن ٢٠٠ ق . ل . س .

الفلسفية التي تتخلل هذا البحث الفني الخاص .

واخيراً بقي علينا ان نعرض لصفحات منقولة عن الفرنسية تحت عنوان « رجوع الى تبازة » للكاتب البير كامو . وهذه الصفحات التي ينبض فيها وهج شعري نهم ، تصور الانطباعات والاحاسيس التي توحيها للكاتب الفرنسي عودته الى بلدة « تبازة » ، في الجزائر في احدى عطلاته الصيفية.

وانني احب ان اصارح « الاداب » ، وهي المجلة المعروفة بدفاعها عن الشعوب العربية والتراث الفكري العربي ، بأن دهشتي كانت كبيرة عندما رأيتها تسمح بأن تتوج هذه القطعة من الادب الفرنسي بهذه الكلمات « صفحات من الادب الجزائري الحديث » ، وبأن يقدم لها المترجم بكلمة خاصة كتبت بأحرف بارزة وسط اطار خاص ، يقول فيها من جملة ما يقوله : « هذه قطعة من روائع الاديب الجزائري الكبير « البير كامو » ... وهذا الكتاب نفثات شاعرية استوحاها كامو من جمال الطبيعة الجزائرية الحبيبة اثناء اقامته بالجزائر في العطلة الصيفية . وواضح ان كامو يبث هنا حبه للجزائر ونفوره من اوربا ... »

فان ادراج ادب البير كامو في نطاق الادب الجزائري مغالطة لا يبررها كونه ولد في الجزائر وانه يستشعر الحنين الى ربوعها . فهو بالرغم من كل ذلك ، فرنسي « الوجه واليد واللسان » لشده الى فرنسا اواصر الدم والثقافة واللغة والمثل والنضال . انه ، شئنا ام ابينا ، وجه من وجوه الحضارة الاوروبية التي يحاول الفتح الفرنسي فرضها على شعب الجزائر الاصيل بقوة الحديد والنار ، واحلالها محل الحضارة العربية والاسلامية .

ومن يكن في شك من ذلك ، فليرجع الى القطعة ذاتها التي نشرتها « الآداب » . ففيها يتحدث الكاتب عن الجزائر فلا يرى منها غير ضياعها وبحرها وشطآنها وترابها وخرائبها اي غير هذا الاطار الميت الذي يخرجها عن واقعها الحي كبلد يعيش فيه ويبني ويناضل ويستشهد شعب نحب ونحب « الآداب » اعتباره واحداً من مجموعة الشعوب العربية .

ان كامو ، في هذه القطعة ، يبدو ، كمن يحاول ان يجرد هذه الجزائر « الحبيبة » من روحها الحقيقية ، من رائحة هذا الانسان العربي او البربري الذي يدب عليها ويكدح ، لأن هذا الانسان يحمل وجهاً غير الوجه الاوربي وطابعاً غير الطابع الذي يريده له الاستعمار .

ولا يغرن المترجم هذا الشوق الذي تحمله كلمات كامو الى الارض الجزائرية . فهو نفسه يعلن بصراحة ارتباط مصيره بمصير الامة الفرنسية التي نبع من اصولها ، عندما يقول في نهاية كلمته المنشورة :

« لكن احداً لا يريد هذا السر ، من غير شك لا اريده انا نفسي ، ولا اقدر ان ابتعد عن اهلي . لقد عشت في اسرتي التي تظن انها جالسة على عرش مدن غنية وبشعة ، مشادة بحجارة وضباب تتكلم ليلاً ونهاراً بصوت مرتفع . كل شيء ينثني امامها ، هي التي لا تنحني امام احد : هي صماء عن ادراك كل الاسرار . قوتها التي تحملني حيرت مضجعي وصراخها اتعبني . لكن شقاءها شقائي ، فنحن من دم واحد ، ضعيف ايضاً ، شريك في الذنب محدث الضجة » .

فما بعد هذه الكلمات الواضحة ، من شك في ان كامو لا يرى اهله الا في جانب الامة الفرنسية التي تجلس « على عرش مدن غنية ومشمئة مشادة بحجارة وضباب » والتي ينثني امامها كل شيء (وحتى الشعب الجزائري منذ اكثر من قرن) وهي التي لا تنحني امام احد ؟ »

اليس في هذه الكلمات ما ينبيء بوضوح بأن كامو ككل فرنسي استعماري يعتز بقوة هذه الامة التي تحمله الى تلك الارض الجزائرية وبانها لا تنحني امام احد وانما تركع كل الاشياء والشعوب امامها ، فهو يرى شقاءه في شقاء هذه الامة ، المدلة بقوتها وبجبروتها ؟

فبأي حق ، بعد ذلك ، نلحق هذا الاديب بالادب الجزائري ؟ وهل يمكننا ، نحن العرب ، ان نؤمن بوجود ادب جزائري مستقل عن الادب العربي او يقوم بمعزل عن الواقع العربي في تلك الارض المغربية ؟

اما الحيرة التي تنأ كل هذا الكاتب الفرنسي في عودته الى ارض الجزائر واما العقد النفسية التي تعبر عنها صرخاته على تلك الارض التي يقف فيها اليوم ، وجهاً لوجه ، في نزاع دام رهيب ، شعبان لا التقاء ممكناً بينهما ، فهي لا تعنينا بشيء ولا تثير فينا الا هز الاكتاف . بلى ، انها تذكرنا بقول ناظم حكمت مخاطباً شاعراً فرنسياً آخر ظل يغني الشرق القديم وشعوبه بحب وحرارة لا نحس بهما عند كامو :

لقد كذبت يا لوتي
لقد كذبت
فقد قصفت بالقنابل
قبر « ازيادة »
الذي غرسته فينا ،
الذي غرسته فيّ
كما لو كان مرمى من خشب
فليعلم الجميع ،
انك يا لوتي
لست الا دجالاً !
دجال . . . .
لوتي

واخيراً كلمة عن الترجمة . ان في القطعة كثيراً من المقاطع المبهمة ، واننا نرجح ان تبعة هذا الغموض المترجمة تقع على المترجم . ومهما كان من امر اتصال السيد عثمان سعدي بالنص الاصلي ومدى امانته له ، فان من الراهن ان النص العربي يحمل بوادر التشويش والركاكة في البناء في كثير من المواضع ، مما يزيده غموضاً ويمنعه عن الافهام اذ يقضي على الشفافية التي يتميز بها بيان الكاتب الفرنسي .

علي سعد

بطرس البستاني ورئيف خوري

•

الفكر العربي الحديث واثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي لرئيف خوري .

معارك العرب في الشرق والغرب . معارك العرب في الاندلس . الشعراء الفرسان لبطرس البستاني .

اطلبها من دار المكشوف ، بيروت ص. ب ٥٨١